

## جون هوررد واصلاح السجون

بقلم جناب د. هنري افندي قندلفت

لا شيء ادعى الي اطمئنان قلب العاقل وانشرح صدره من نظره الي تعالي الطبيعة والادب نفاذ التأمل البصير فيجمع بين شرأعها بجامعة الاخاء والاتحاد ويربطهما برابطة الوفاق والوفاء حتى لتطابق الدائرتان وتجد الركزان فيدوران على نقطة واحدة هي وحدة الوضوح الازلي مع خير الانسان

ومن اوضح الأدلة على وحدة الاصول والمبادئ في العالمين ان ناموس تشابه الاسباب والنتائج وتنسب العاقل والمعدولات واحداً فيهما بلا تخلف ولا انقلام فالنتيجة مجانسة لقوتها ابدأ . وما ناموس ردة الفعل في الطبيعيات باجلى حقيقة منه في الادبيات . فان قوة العنف والقسوة لا تتج الا مثليها من العناد والاصرار والعنف لا يولد غير الصلغ والتادي في ميدان العصيان . وقس على ذلك ناموس تنازع البقاء او بقاء الانسب وما شاكلة مما قد تكون حقيقة في عالم الادب او طرد ركناً واجل شأناً ووضوح برهاناً

وكما كان من شأن الشرائع الطبيعية ان تكشف حقائقها تدريجياً على تراخي الايام وبعد طول التجربة والاختبار كذلك كان من نصيب المبادئ الادبية العائدة على صلاح هيئة الاجتماع ان لا تظهر كواكبها الا لامة لاهل السيادة والاحكام الا بعد ان مرت شعوب العمور في اطوار من ظلمة الجهل والرحسبة وبعد ان انت الارض من ظلم ساكنيها قوتها متديدة حتى لم تعد تطبق الاحتمال

وغير خاف ان اكثر الناس يزعمون لاول نظرة ان غرض الشرع من فرض العقاب والحد على المحرم مجرمة ايقاع الاذي عليه من طريق الانتصااص والانتقام ممنوعين بان الإرهاب هو الذي يلزم المذنب جادة العدل وحسن المسلك وان القوة القاهرة هي التي تقف به عند حدود الاستقامة وترده الى سبيل الصواب وان بذلك يسان نظام عقد الاجتماع ويحفظ الحقوقي المتبادلة بين افراد الامة والقبيل . وقد غفل ارباب هذا المذهب على كثرة عديمهم عن ان اصلاح الجنائي وردة الى سوء السبيل التي هي اقرب الى شرعة الحكمة والتخير العام من اجل غيات العتاب المقصودة بالذات . فاذا صحب عقاب المجرم ما يبدله على رجاء اثير فيه كان ذلك اضمن لتلافي شره واخون على راحة العباد والبلاد بما يربح في صدره حيثئذ من بنية الشهامة التي تحيا في الرجاء وحسن الثقة وثروت في اليأس ومطلق الخذلان

ومن القريب ان البشر لم يشبهوا الى ما في رأي القهر والانتقام من التقصص والتقصير عن ادراك النهاية القصدى من القصص الا لعهد قريب من ادوار المدنية والعمران . هذه أوروبا التي طلعت عليها انوار المدنية منذ اربعة قرون فاصححت قوّة عين التمدن وغرّة جيبين الانسانية كانت سمجوها لاواخر القرن الثامن عشر من شرّ ما بقي فيها من آثار العنصرية واقبح ما خلقت لها عصور البربرية وقرون الظلام

ومع ما بلغت شرائعها واحكامها لذلك العهد القريب من مراقي العدل والرحمة ومعانى الانصاف والاشفاق وما تجلّى لحكامها من اثمار العلم انكاشفة للقوق الفردية والاجتماعية كانوا في معانتهم للجرميين والذنبين كأنهم لم يعرفوا لعق دستوراً ولا شاموا الانسانية نوراً . ولولم يتم من افراد الامة الانكليزية من تنبه لويلات اهل السجون حتى وقف اللذان والطيابة على تصير الحكام بشقاء احوالهم واستصراخ الشعب استجداداً لكشف ذلك الضرّ لفاثت السجون الى ما شاء الله مدافن سكانها هم في عالم الظلام والشقاء والناس فوقهم في عالم النور والنعيم لا يعلمون من امرهم شيئاً كأنهم عمى عم لا بصرون ولا يسمعون .

وان كان العقلاء من عشاق التاريخ تروق لهم اساطير المتطف من اخبار الحروب الصاعدة للقلب وتنجيون بابطال المتبرح والفزوات التي راح فيها ما لا يحصى من النفوس البشرية على مذابح الاطّاع السافلة فما امثل بهم ان يطربوا لسير ابطال الاصلاح الانساني الذين تقانوا في احياء العدل والحق العام واخطفوا بني العناسة والويل من تغالب الظلم بما قاسوا من ذلّ الجهاد والعناء وما رفعوا مثار الانسانية الا بما كابدوا من ضروب الخسف وجهد البلاء

فما اخلق بثل المتططف الاغمر كوكب الشرق الساري ان يضمّ في صفحاته الى ما سبق من تراجم عظماء الارض من فلاسفة وعلماء وقواد وفاتحين ومكتشفين ومخترعين ومعمنين سبر اخوانهم المصنعين كما الانسانية الذين احسنوا اليها ما هو ابي ذكره اوطيب نشره واعظم فخراً وأجراً

ومع الآن موردون خلاصة تاريخية لا كان من سره حال السجون الاوروبية ونعاسة حفرة سكانها من بني الانسان مع الامناع الى بداية اصلاح الحالتين بصرة لقوم ونذكرة لآخرين اول من تنبه لخال السجون وشقاء ناسجين جون هوردد الانكليزي من نوابغ المصنعين في اواخر القرن الثامن عشر ذلك انه فيما كان مسافراً اجراً من انكلترا الى البورتغال ذاهمة سبينة للقرصان الفرنسيين فاخذ اسيراً مع رفاقه فيها وقالهم من ضرور القهر ولاعنات والتعذيب الضميب الوافر حتى انهم جرهوا الخبز ولباء ثمانية واربعين ساعة . ولا اوصلهم نكد الظالم الى احدى المدن سمجوا هناك في احدى سجون القلعة الطالحة بالاعتذار زمناً غير يسير

لم يدخل اجوافهم فيه ضلعاً الى ان انقي لهم ذات يوم قطعة من اللحم التي فتكالبوا عليها  
 نهباً كجبايع الذئاب . ولم يكن يقي ابدانهم في تلك الزريبة الوحشية من رطوبة الارض ووبالة  
 الاقدار سوى شيء قليل من الشمس . ولما قال هورد صاحب الترجمة رحمة الاطلاق اسرع  
 الى انكسار ولم يهدأ له بال حتى فاز بشفعة الافراج لرفاقه الاسرى الساكنين  
 قنابيه من ذلك السجن وعند النفس على اصلاح سجون الارض حتى صار قنابيه آماله وكعبة  
 مساعده واعماله بل غرض حياته الوحيد العزيز . فشرع اولاً بكتابة سجناء الانكليز في فلاح  
 اوروبا وسجونها وقوفاً على احوالهم . فوجد انهم كانوا اسوأ حالاً من حاله في ذلك السجن فلاح  
 له ان يتدبى باصلاح سجون بلاد اورالانكليزية فوثق في استطلاع احوال سجونها وساكنيها  
 بما كان له من وجهة النصب في عضوية بعض المجالس فكان يقف على دعوى المجرمين يبين  
 المنش الرقيب ويراقبهم بعد صدور الاحكام عليهم الى سجونهم فبداه له من احوال تلك  
 السجون ما يستت الاكباد وشبر السجون

فان السجناء في سجون انكلترا وغيرها من ممالك اوربا لذلك العهد كانوا يُرَجَّحون في اقيمتها  
 المظلمة جماعات مودحة الصنوف بجانب الصنوف لا يترق بينهم اختلاف الجرائم والذنوب من  
 الجائع المهوف خائف الرغيف الى قاطع الطريق وصنالك الدماء . وقد تبين له بعد البحث انه  
 كان في جملة اولئك الاشقياء من ظهرت براءة ساحته بعد ان سجن زمناً طويلاً وان بعضهم لم  
 تظهر عليه اثار شبهة لقيام الدعوى عليه وان غيرهم لم يبرز لهم خصوم بعد ان سجنوا شهوراً ففردوا  
 الى السجن حتى يوفوا آخر فلس للسجان ومجلس القضاء عدداً من اكلت ابدانهم الامراض المختلفة  
 الناشئة من رطوبة السجن وتذارتها ومن راحوا على المشقة تحايا الظلم ومن ماتوا فرائس الجوع  
 ولما كانت رواتب السجناء والحراس تسقى من المشهين والابرياء لا من الحكومة قام  
 هورد والنس اولاً ان تُقضى من صندوق المدينة فساد بحبيبة الامل ولكنها ازداد حمية وعزماً  
 في مساهم الخليل اريد به اصلاح السجون في جميع ممالك الارض

فانه وجد بازدياد البحث في بعض الاساكن ان فلاح السجون على اسوأ ما يتصور الخيال  
 من سوء الحال . وكانت توضع النساء والرجال في قبة واحدة ولم يكن لبعض المترن متافذ  
 للهواء والنفاء حتى كانت الحى تجرف من جموعهم العشرات بعد العشرات ولم يكن للتديون  
 البائس ما يسد به الرمي او يبل الرقيق واما عن الكليلين بالندود والاعلان فحدث ولا حرج  
 بعد ان تطلق خيالك السراج

وبعد ان تيسر لهذا الانسان العظيم الوقوف على مساويء السجون وتخارجها في بعض بلاد

جعل يطوف أنحاء انكلترا تنقداً لشؤون السجون لا يشبه عناء الاسفار ولا احوال الاخطار  
وقصد التفرج الكروب عن بينها فتسنى له الانراج عن كثيرين من الابرياء واخراجهم من  
مدافن الاحياء. وعند ما تم له الفحص عن سجون بلادير وشاخ امره وذاع قرر مجلس العموم ان  
تعيين لجنة تحقيق الواقعة فقصده هورد بذاته تلك اللجنة حاملاً رزم التقارير والاحصاءات الناطقة  
بصدق ابحاثه وتحقيقاته وبما سألته عضو من اللجنة على نقطة من قام بهذا العمل العظيم ختنته العبارات  
على ان هذه اللجنة ألبت همة نشاطاً بشكرها والانتفات الى بيانها والعناية بمطالبها فاصدرت  
الاوامر اولاً بالفاء نقد الجزاء او جزاء التقدير والجرأة وتعيين رواتب ضباط السجون من صندوق  
الدولة مع السرعة باطلاق المهتمين الابرياء ثم اخذت ذلك بتطهير السجون وتبييضها وفتح منافذ  
للهواء والنور. وتررت ان تبني ملاجئ ومستشفيات العجزة والمروحي من المساجين

وكان هورد اثناء انقضاء هذه الاوامر طريق الفراش من شاق ذلك السفر الشاق على العلماء  
بماني قام يطوف اسكتلاندا وایرلاندا يتفقد سجونها وشؤونها فوجد في البلادين ما وجدنا من  
احوال سجون انكلترا فنشر نتائج ابحاثه فيهما نالت من النجاح ما نالت منشوراته في اختهما انكلترا  
وبعد ان تم له ما سبق من بلوغ الاماني في اصلاح سجون بلادير على قدر ما اذنت به  
الاحوال وجه زمام المهيمه الى سائر ممالك اوربا في ذلك المقصد النبيل فقصده اولاً فرنسا ولما  
دخل باريس وطلب الدخول الى سجن الباستيل المشهور اُضطقت في وجهه ابوابه ولكنه وافق  
الى دخول بعض السجون غير فوجدها على فسادها احسن حالاً من سجون الانكليز غير انه لما  
انصل بالحكومة انه طلب دخول الباستيل اصدرت الامر بالقاء القبض عليه وطرحه في  
السجن لكنه ركن الى الفرار وكان من جراء ذلك الحكم انه نشر تقريراً في حالة سجون فرنسا  
بعد ان لقي في ذلك الصاء التقيل

ولما نال بفته من فرنسا قصد بلاد البلييك وهولاندا ومانيا يفشى السجون ويستطلع  
طلع احوالها حتى جمع لديه من القوائم والتقارير مجموع ثقیل الحن. وبعد ان عاد الى انكلترا  
يشاهد ما جد فيها من الاصلاح توجه الى سويسرا فوجد ان مسألة السجون شاغلة للمجالس  
والدوائر وان الاوامر قد صدرت بتشغيل السجناء معاونة على نقاتهم وتخفيفاً لحل الضرائب  
التي كانوا يفرمون بها ارضاً مدة الاقامة في السجون

وبعد ان تلقى عليه ثلاثة اعوام سائر فيها ثلاثة عشر الف ميل نشر مؤلفاً ضخماً في  
حالة السجون كانت له هزة في أنحاء البلاد وكان من نتائج ان مجلس العموم استدعاه ثانية  
واستأف نقاوضه معه وعاود النظر والبحث في احوال السجون بغية الزيادة في الاصلاح

والتحسين. فاشار هورد بان تبنى داراً للإصلاح (اصلاً تخانه) لتسجين المساجين علي مثل ما رأى في امستردام ولا أس من المجلس قبولاً لمشورته خف إلى تلك المدينة ثانية اتماماً لوفيقه علي طريقة تلك الدار.

ولما قضى الوطر من تلك الزيارة القصيرة سافر إلى بروسيا والنمسا ملائياً في طريقه معارضات حمة من جنديّة الممكثين. وبعد ان اتفق مدة يسيرة في فينّا عرج علي ايطاليا ولما بلغ رومية التمس الدخول إلى سجون ديوان التفتيش فاحقق معاه كما ردد في باريس فعاد إلى انكارا وطلبه وقطع في طريقه هذا أربعة آلاف وستائة ميل وكان حينما حلت ركابه والتي خطابة يلقى جزيل الترحيب والاكرام ويطلب للاذعان إلى مشوراته بإصلاح السجون واسعاد سكانها. وكان مع بذل انعايه في الاسفار والنحت والتقرير والتجوير بسط كفه في اسعاد المحتاجين واثابة الملهوفين وينفض بهذه الكارم الرائعة هم ذوي الاربعية والسقاء فتفتحت ابصار المصيرين من اهل الاحسان في جميع البلدان وتشرفوا إلى حديث سكان السجون وكان مد الاكف يتبع سماع الآذان

علي ان هذا البطل الهام والاسد الضرام لم تقعد به المدة عند هذا الحد من السعي والجد بل عاد ثالثة إلى زيارة سجون بريطانيا العظمى وقطع هذه المرة زهاء سبعة آلاف ميل فتركت عينه بما شاهدت من مستحدثات الإصلاح الناجمة عن مساعده السابقة من تحسين بناء السجون علي مقتضيات الصحة

ولما اطمن خاطرهم تمام الاطمئنان من امر سجون بلادور وما جاورها من ممالك جنوبي اوريا نهضت به المزمجة إلى زيارة شمالي اوريا فقصد بلاد روسيا ودخل بطرسبرج منفرداً سعيًا علي الاقدام ولما ابصر بوليس واوصل خبره إلى الامبراطورة كاترينا استدعته إلى مقابلتها في بلاطها الباذخ الشان فرد دعوتها متطلقاً بقوله انه إلى روسيا لا لمشاهدة صروح المعرك والمنككات بل لزيارة السجون وسكانها السقاء. وبعد ان فاز باجازة زيارة السجون متجهراً بقوة عسكرية شاهد في جملة ما وقع لنظره من احوال اولئك السجناء بني العدل والشقاء ما يبكي الحبير الاصم. وتجويد الحكاية

انه اخرج يوماً في حضرته من بعض السجون رجل وامرأة ليجلدا بالسوط الروسي المشهور بنقله وشدة فاضم الرجل من ذلك السوط الحلو مذاق سنا وعشرين جلدة شبيهة النظم والمرأة خمساً وعشرين اوهت منها الجلد والعظم. ولشدة انعاليه من تلك التسوة البربرية رام الوقوف على مصير هذين الثقلين فزار الجلاد بعد بضعة ايام وسأله "هل يمكنك ان تضرب

بالوسط فسرنا بزور المضروب به القبر " اجاب " نعم " قال هورد " بعدكم يوم يموت المجلود السيد الحظ " اجاب الجلاد " في يوم واحد ان لم يكن في يومين " قال هورد " وهل سبق لك مثل هذا الضرب " اجاب " نعم . والرجل الذي جلده منذ وقت قصير مات من ذلك الضرب " فسأله هورد ايضا " وكيف يمكنك ذلك " اجاب " اهوي بالوسط على جانبيه بضربة او ضربتين فيفترق اللحم عن العظم . ومن آخر سوء الالام التي تحدث ان الجلاد انما يفعل ذلك التعل الشيطاني باسم الامرين . وقد كتب من موسكو انه قد مات في المستشفيات العسكرية من جراء النسوة والظلم لا اقل من سبعين الف جندي في سنة واحدة

وبعد ان قضى زيارته الى روسيا عاد الى انكلترا رابعة مارا في بولاندا فاستمرجا وفي سنة ١٧٨٣ سافر لاجل هذا المارب الشريف الى اسبانيا واليهود فقال ونشر نتائج مشاهداته في ملحق لتلك الجلد الكبير الآف الذكر

هذا وبعد ان نقضى على هورد اثنا عشر عاما في الاسفار البحرية والبرية يتفقد سجون اوربا قطع في مداها اثنين واربعين الف ميل واتقى من جبهه الخاص في اضافة الكرو بين والمعوزين ثلاثين الف ليرة انكليزية لم يكتف باصلاح السجون بل سمع همتة بعد ذلك الى ان يطوف الاماكن التي تنشئت فيها يومئذ الاوباء طلبا لتخفيف بلايا المربوبين وسعي في إيجاد علاج لتلك العلل التي نبتت فيها حيل رجال العلم والعب منذ عرف معنى للعب

فقد سنة ١٧٨٥ باريس ولتذكر ما جرى له في زيارته الاولى لها عند ما طلب الدخول الى الياستيل دخل الان باريس متكررا غير انه ليلة وصوله اليها اعتدى البوليس الى منزله فتفتت له حيلة الخوف ان نهض وسط الليل وفر من المنزل ولا بلغ مرسلها فاج له الحظ الدخول الى احد السجون فادرك بيته من نيل المعلومات التي اراد ومن هناك قصد ازعير حيث كان الوفاء على اشد حاله ومنها ركب باخرة موبوءة قاصدا قضاء مدة الحجر واختيار احواله . ولا من الله عيبه بالشفاه عاد الى انكلترا وطنه المحبوب بطوف زرعها وقراها يسمع المسكين ويرد لهفة الملهوف . وكان ابتعاده هذا عن اهل السجون ابتعاد الوالد عن اولاده ساكني فوادو

وبعد ان لبث مدة غير يسيرة على تلك الحال جدا بو الشوق الى انقام مقصده من زيارة اماكن الوفاء . فقد سنة ١٧٨٩ بلاد هولاندا والمانيا وروسيا وفي تسعين ان يرصل سفراته هذه الى تركيا ومصر وتونس وملحقاتها من ولايات بلاد الغرب الا ان سمانه هذه انقطعت بانصرام حبل الاجل في خراسان من بلاد التتر الرومية . فانه في زيارته السجون على عادته

علقت بوالحي فرض غربياً وهناك ارسل انقاسة الاخيرة واسلم تلك الروح الطاهرة لتتال جزاءها  
 المخد وعزاهها المقيم وقد اوصى ان يدفن هناك في مقبرة لاحدى الكنائس وقال واروا جدي  
 البالي تحت اطباق من التراب وانصبروا فوق لحدي ساعة شمسية فالحق بين طوى ذكركم الزمان  
 غير ان اسم مثل هذا الحسن العظيم والمصلح الكرم لن تقوى على محوه الايام وكيف ينسى  
 ذكر من احسن الى الانسانية وكان خليل البائس المظلوم واصير اهل البعاسة والقتل والبلاء  
 وهو الذي لولاه لظلت السجون تبور سكانها الى يوم يعشرون . اجل انه مات بعد ان ادرك  
 بعض مناه غير ان مقعده النيل لم يث معه شأن كل مقاصد الاصلاح والصالح . بل ما  
 انتفكت آثاره لتنتطق عنه بانفح لسان تنهض بذوي الحسم وتحي موات الشبهامة والثخرة والكرم  
 في جميع الامم المتعددة الى اليوم فيقتالو ليقنوا المحسنون وعظم منواله قنبسج المصلحون

## رواية تنكرد

للوزير النهر اللورد يكسفيد

### الفصل الرابع

نفر الدين — متى ابطل الناس عبادة هذه الاوثان

تنكرد — لما اعلن الله دين الحق يسوع المسيح

نفر الدين — ولكن الله اعلن دين الحق قبل المسيح لما كلم موسى على جبل سيناء وكلم

الانبياء وملوك اسرائيل بعدهم

تنكرد — والمسيح واحد منهم وهو آخر ملك قام من بيت داود وقد شاء الله ان تخضع

له ام الارض وهذا هو الفرق بينه وبين من تقدمه من الانبياء . والديانة المسيحية هي الديانة

اليهودية بعد ما جعلت عامة لجميع الامم فظمورها امات الاديان الوثنية

نفر الدين — ومن هم الامم الالست انت منهم

تنكرد — نعم انا منهم من قبائل القرصان الذين مررت القرون الكثيرة ولم يسع احد

عنهم شيئاً . ولا اعلم ماذا كان حالنا الآن لو لم تفر عقولنا بتعاليم الديانة العربية السورية . لكن

هذه الديانة بلفتنا حديثاً فعلا بها شأننا وصار منا الملوك والامراء

نفر الدين — ما اعجب التاريخ وما اكبر فوائده لو تعلمته لتت معارفى . ولكن هل اعدت انا

ايضاً من الامم